مجلة منتدى الأستاذ

المجلد: 19 العدد: 01 السنة: ديسمبر 2023 الصفحات 192- 203

السردية المأساوية في مجموعة شتاء دمشق لنوار ياسين

The tragic narrative in the collection "Winter of Damascus" by Nuwar Yasin

عثمان رواق[1]،*

[1] جامعة 20 أوت 1955/ سكيكدة (البلد)، o.rouag@univ-skikda.dz

تاريخ الإرسال: 2022/06/23 تاريخ القبول: 2022/11/21

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تقصي العناصر المؤسسة للسرد المأساوي، في المجموعة القصصية شتاء دمشق، للكاتب الجزائري نوار ياسين التي ظهرت في طبعتها الأولى سنة 2016، في فترة تاريخية عسيرة في المنطقة العربية وخاصة المشرق العربي، حيث تناولت مآلات موجة أحداث الربيع العربي، التي أدت بالكثير من الدول العربية إلى الدمار وزوال أنظمتها السياسية، وشيوع الفوضى والحروب في أرجائها، مثل العراق واليمن وسورية وليبيا ومصر وتونس، وقد خصت هذه المجموعة القصصية سورية لتسرد مأساتها ومأساة شعبها، بأسلوب سردي غلب عليه الحس المأساوي الذي تجلى في مختلف العناصر المؤسسة للتجربة القصصية في مجموعة شتاء دمشق، فقد انعكست محتويات المجموعة على البنية السردية في النص فوسمها بسمة المأساوية، بداية بتجلي البطل المأساوي وهو البطل الذي يقاسي تبعات الأحداث ويعاني بؤس التشرد والضياع،ومرورا بالفضاء المأساوي الذي بات فضاء غير مرغوب رغم ما يمثل لشخصيات القصة من ذكريات جميلة في الزمن الماضي، مسترشدة بالمنهج البنوي تحاول الدراسة ملامسة هذه القضايا في هذه المجموعة القصصية.

الكلمات المفتاحية:
نوار ياسين؛
شتاء دمشق؛
المأساوي؛
القصص القصيرة؛
السرد؛

ABSTRACT:

This study aims to investigate the foundational elements of the tragic narrative in the short story collection "Damascus Winter" by Nouar Yassin. This collection, published in 2016 during a challenging historical period in the Arab region, particularly in the countries of the Arab East, addresses the aftermath of the Arab Spring events. These events resulted in the devastation of many Arab countries, the collapse of political systems, and the widespread chaos, notably in Iraq, Libya, Syria, and Tunisia. The "Damascus Winter" short story collection delves into the tragedy of the Damascene community through a narrative style dominated by a tragic sense. This tragic essence is reflected in the tragic hero, tragic space, and tragic time. Employing a structural approach, this study seeks to address thematic issues within this collection of narratives.

Keywords:
nouar yassin ,
damascus winter,
tragic,
short stories,
narrative,

* عثمان رواق

مقدمة:

يعد الكاتب الجزائري (نوار ياسين) من الكتاب الشباب الذين يسعون لاستحداث آليات سردية جديدة، في مجال الكتابة الروائية والقصصية الجزائرية المعاصرة، لإحداث التغيير المنشود الذي يخلصها من تراكمات الفترة التي عرفت طغيان التيار الواقعي، بأنماطه التعبيرية الصارمة وموضوعاته المستهلكة حد الاجترار، فقد باشر كتابة النصوص السردية قصة ورواية منذ فترة وجيزة؛ لا تتعدى العقد من الزمن لكنه استطاع أن يصنع لنفسه اسما لامعا بين كتاب الرواية و القصة القصيرة في الجزائر" يعد (نوار ياسين) من كتاب الرواية الجزائرية الجديدة، وقد سجل اسمه في سجل الرواية العربية الجزائرية من خلال مجموعة من العناوين الروائية، من أبرزها رواية (صحاري السراب) (2017) ورواية (كاف الريح) (2016) ورواية (بعيدا عن الجنة) ورواية (حبة برتقال) ورواية (حكاية طفلين)، ورواية (كسر الخاطر) ورواية (خلخال عمتي)، بالإضافة إلى بعض المجموعات القصصية مثل (رجل العسل)، و(شتاء دمشق) و(الأبواب الأخرى)، وهو من الكتاب الشباب الذين يمثلون الرواية الجديدة في الجزائر فقد ولد بقالمة شرق الجزائر في السابع والعشرين من شهر سبتمبر ألف وتسع مئة واثنين وثمانين، وقد استطاع أن يفتك جائزة علي معاشي للرواية سنة 2014، تمتاز كتاباته الروائية بحمل الهم الوطني والاجتماعي والقومي والحضاري، هذا الهم هو جوهر العملية الإبداعية عنده، بأسلوب يغلب عليه التوجه الواقعي في الطرح والمعالجة، لكن دون أوهام إيديولوجية تبريرية، ولا إباحية فجة،وإنما هي واقعية جديدة وليدة الخصوصية الاجتماعية للمجتمع الجزائري بقيمه وعاداته وتقاليده"[(1)]، وقد جاءت (مجموعة شتاء دمشق) ضمن هذا المسار الإبداعي وضمن هذه الرؤية الفنية والموضوعية، صدرت هذه المجموعة في طبعتها الأولى سنة 2016، عن دار الألمعية للنشر والتوزيع وضمت بين دفتيها ستة عشرة قصة ابتدأت بقصة أم واختتمت بقصة الشجاع الأبتر، ويبدو حسب المؤشر الزمني المدون في نهاية القصص، أنها كتبت في الفترة الممتدة من سنة 2013 إلى سنة 2015، وهي الفترة التي عرفت امتدادا كبيرا لأحداث الربيع العربي الذي هز الكثير من البلدان العربية، بداية بتونس ثم ليبيا وبعدها سوريا، لتتخذ هذه المجموعة القصصية من أحداثها موضوعا لها، معبرة عن مأساة الإنسان السوري المشرد من بلاده، والهائم في بلدان العالم باحثا عن مستقر له وحماية من شرور الحرب، وتحاول هذه الدراسة مسترشدة بالمنهج البنوي تتبع الخطاب المأساوي في المجموعة القصصية وأهم تجلياته.

1- الخطاب المأساوي المفهوم والتجلي:

حين يتحدث (أرسطو) عن "التراجيديا tragoidi (أغنية الماعز) الفن الذي ارتبط بلبس جلد الماعز على المسرح لتمثيل شخصية ساتير satyr فإنه يعتبرها "محاكاة لفعل جليل، وهي تتضمن الرحمة والخوف تحدث تطهيرا لمثل هذه الانفعالات، وتقوم عنده على مبدأين الفكر والأخلاق، وهي تتضمن القصة والأخلاق والعبارة والفكر والمنظر والغناء،وهي في الأساس محاكاة للأعمال"[(2)]، تتضمن القصة التراجيدية وطريقة تجسيد القصة مركزة على محاكاة الفعل؛ كفعل تطهير للذات الإنسانية من عواطفها المختلفة بغية تحقيق التوازن النفسي، لذلك يذهب بحري محمد الأمين إلى التأكيد على جملة من المصطلحات التي تبرز الحس المأساوي في العمل الأدبي فيذكر"المفارقة باعتبارها انقلابا للحال وهي عنده البداية والأصل في الفعل الدرامي ، ثم الموقف المأساوي وهو عنده la situation ويتضمن

هذا المصطلح علاقة الكائن الحي ببيئته والآخرين، وهو يقوم على العوائق ومقاومتها،ثم التطهير كما هو عند أرسطو"[3].

تتوسل الكتابة الأدبية بالمحاكاة؛ إلى إعادة تصوير أو تمثيل الفعل الدرامي المؤثر والمثير للانفعال الإنساني، عبر جملة من الممارسات اللغوية والفنية، مثل التركيز على المفارقات باعتبارها تعبيرا على انقلاب حال البطل المأساوي من حال إلى حال،(من الفرح إلى الحزن/ أو من الحزن إلى الفرح)، كذلك من خلال استحضار المواقف المأساوية التي تعيشها الشخصية في مواجهتها للعالم وللآخرين، وهذا الموقف المأساوي ناجم عن الكثير من المعوقات التي تقف في وجه البطل لمنعه من تحقيق المراد، وفي سبل مقاومة هذه المعوقات والمشاق التي يتحملها البطل في سبيل ذلك ينمو الفعل الدرامي وتتعمق المأساة، لتصل إلى تحقيق الإفراغ العاطفي اللازم عند المتلقي الذي يريح نفسه من تلك الحمولات العاطفية المتضاربة والمتناقضة أحيانا ليعيش التوازن النفسي من جديد، وذلك عند المؤلف أيضا، ولابد هنا من الإشارة إلى الحامل المأساوي الذي يقود البطل إلى مصيره المأساوي كما يعبر عن ذلك الباحث بحري، ويلخصه في: "1- القدر حيث قدر الإنسان لا ينفصل عن الفاجعة، 2- المأساوي:وهو التعبير الحقيقي عن خيبة الأمل"[4]، يعني ذلك أن الإنسان قد يجد نفسه في الكثير من المواقف وجها لوجه أمام جملة من التحديات لم يكن له يد فيها، ولا اختار أن يخوضها بل فرضت عليه فرضا، وشكلت قدره الذي لا مفر منه، ولعل في روايات الحرب وروايات التحولات الاجتماعية الكبرى، ما يجسد هذا الطرح ففي مثل هذه الأعمال كثيرا ما يقع البطل المأساوي تحت وطأة ظروف قاهرة سبقته في الوجود لكنها تؤثر تأثيرا مباشرا في سيرورة حياته وتحقيق مشاريعه إنها قدره باختصار، أما المأساوي فهو ذلك الإحساس بالفاجعة عند خيبة الأمل وانقلاب الحال وضياع الآمال والأحلام، "إن أي قصة تراجيدية عادة ما يبدأ السرد مع البطل وهو في ذروة نجاحه فهو محترم وسعيد لكنه سيواجه المشكلات التي ستؤدي إلى سقوطه لتنحدر القصة تدريجيا بالبطل من العظمة إلى الدمار، حيث ينتهي به الأمر بمعزل عن جميع أصدقائه ورفاقه، قد يثير ذلك في القارئ الحزن والشفقة، وفي توصيف للتراجيديا في الأدب العربي في وصف أي حدث حزين قد يستخدم الناس كلمة مأساة"[5].

2- المأساوي في مجموعة شتاء دمشق :

تتوشح البنى السردية وكل التجليات النصية في المجموعة القصصية (شتاء دمشق) بوشاح مأساوي حزين يؤسس لسردية مأساوية، تتجلى في كل العناصر المشكلة للتجربة القصصية، بداية بالعتبات التي تعلن ميلاد النص القصصي، العنوان و اللون والصورة، فالشتاء مرتبط أساسا بجو الكآبة والحزن، وإحالة على حالة العزلة والتوحد، كما يشير إلى نوع من الموات الناجم عن قسوة الطبيعة، وطغيانها على الإنسان الضعيف، فإذا أخذنا بعين الاعتبار إلحاق هذا الشتاء بدمشق، فإن المفارقة تبدو عجيبة، ذلك" أنها (عكس التوقع) لعبة عقلية ذكية إذ على الرغم من أنها استراتيجية في الإحباط واللامبالاة وخيبة الأمل؛ إلا أنها في الوقت نفسه تنطوي على جانب إيجابي فهي سلاح هجومي فعال ..فهي تقانة قصصية، يهدف القاص من وجودها النصي الخروج على السرد المباشر وهو خروج يبعث على الإثارة والتشويق"[6]، حيث تشهد دمشق ما يسمى الربيع العربي لكن المجموعة القصصية تحدثنا عن شتائها،

لكنه شتاء بلون الدم الذي يلطخ الواجهة وصورة الإنسان الملتحف بالحزن والوحدة أمام واجهة من واجهات دمشق التراثية، وهو في حالة نزول من درج إلى آخر، وكأنه نزول في درج التاريخ وليس نزولا في درج العمارة.

3- مأساوية اللون والصورة:

يعد التجلي اللوني والصوري في غلاف الكتاب من العتبات الهامة التي يمكن أن تشي بالكثير من مضمون النص، لذلك يعتبرها النقاد من أهم المحطات التي يمكن أن يلج من خلالها القارئ إلى دلالات النص القريبة والبعيدة، فهي وإن كانت موجهة للقراءة البصرية السريعة إلا أنها لا تأبى القراءة العميقة المتأنية وقد جعلها جيرار جينيت من النصوص الموازية" بم فيها اسم الكاتب والعنوان الفرعي والإهداء والاستهلال وصفحة الغلاف وبيانات النشر، والألوان والصور المثبتة على ظهر الغلاف، والتقديم"[7]

تحفظ العتبات حدود النص وتخومه وتوسع دلالاته وتفتح آفاقا جديدة للتأويل إنها "خطاب متعدد التمظهر- كتابة /لون / صورة / رموز/ مختلف الملامح يسيج النص الأدبي ويسهم في إثراء دلالاته بما يتيحه للمتلقي من إمكانيات تأويلية من خلال تلك العلاقة الجدلية بين خارج النص وداخله"[8] في خلفية شاحبة مضببة تلفها ألوان باهتة شبحية، يحضر فيها اللون الرمادي القاتم" الدال على الحزن والوحدة وخيبة الأمل والإحساس بالخسارة والإحباط العام"[9].

يؤثث كل أرجائها وبحضور البناء العربي الشامي من خلال ظهور أجزاء متعددة منه، متزينة بطلائها الخاص والمميز، يظهر الإنسان العربي الشامي بلباسه العربي متوحدا نازلا الدرج، ومكان الشمس تبرز لطخة من الدم تملأ الأجواء، إنها الصورة المثلى للحزن والبؤس، والتي تحيل على شتاء مظلم لكنه شتاء من دم، وهنا لابد من العودة إلى السياق الذي كتبت فيه المجموعة القصصية، خاصة من الجانب التاريخي والجانب الحدثي والسياسي، حيث شكل الربيع العربي أحد أهم موضوعات المجموعة، وبلون أسود مغلظ كتب اسم المؤلف وبلون أزرق مغلظ كذلك كتب العنوان بالخط العريض، إن هذه التجليات اللونية والإيحاءات التي تقدمها الصورة تعكس إلى حد بعيد محتوى النص المأساوي، حيث جاء الربيع العربي ليعم أرجاء سوريا، رافعا شعار الحرية والكرامة ونبد الحكم الديكتاتوري، لابسا كل الألوان وكل الإيديولوجيات، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، هذا الربيع الذي جاء بأقوام من جنسيات مختلفة وبآراء متضاربة، ما لبث أن تحول إلى مأساة بعد أن اتخذ من المواجهة المسلحة وسيلة لقلب نظام الحكم واستحال إلى شتاء مظلم " أجل لقد احترقت الأرض التي درجت عليها اسودت أحجار الزقاق الذي كنت أمر منه..لقد اشتعلت اليوم بيوت العز والشرف.. أليس قتل الأخ لأخيه أعجوبة"[10].

وهنا تتجلى المفارقة العجيبة حين يصبح الربيع شتاء، وتتحول الدعوة للحرية دعوة للموت، وحين يفقد الإنسان كل مقومات الحياة، في زمن ترتفع فيه الدعوات والهتافات لحياة الحرية والديمقراطية، ولعل ورود العنوان بلون أزرق فيه إشارة إلى البعد اللبرالي الداعي إلى الحرية و التحرر من حكم الاستبداد، لكن فيه إدانة لهذا التوجه الذي هدم دولا وشتت شعوبا وهجرها وجعلها شعوبا متسولة بعد أن كانت عزيزة كريمة "أين هي تلك الأيام السعيدة ..وتلك اللحظات الحلوة..لا تحسب أنني ولدت فقيرة معدمة،.. لقد ولدت في سرير عز وشرف وسؤدد"[11]. إنها

مفارقة الخيبة بعد الأمل، ومفارقة الضرر في موضع الفائدة، ومفارقة الضياع بعد العز والشرف، إن العلاقة الجدلية بين العتبات النص ومضمونه لتحيل على كل المعاني المشار إليها سابقا، ففي قصة "أم" وهي أول قصص المجموعة، يضعنا القاص أمام صورة مأساوية لامرأة شامية تقطعت بها السبل، لتجد نفسها متسولة أمام أحد المساجد في بلد ليس بلدها وبين قوم ليسوا قومها، وبتقنية المناجاة الداخلية يحاول القاص تقديم قراءة لواقع هذه الشخصية يلخص من خلالها كل العوامل التي ساقت هذه المرأة إلى هذا المصير،معرجا على الحالة التي كانت عليها قبل الحرب، من هناء وسعادة واستقرار، ثم الحالة التي صارت إليها من فقر وعوز وتشرد.

يقودنا القاص في قصة (السيدة زينب) إلى مشهد من مشاهد الربيع العربي، حيث وصل اليأس بالناس إلى الخروج في احتجاجات سلمية يعبرون من خلالها على غضبهم ورغبتهم في الحرية وتغيير واقعهم السيئ، لكن الظالم المستبد كان في الانتظار فصب عليهم جام غضبه وظلمه محولا ربيعهم إلى شتاء بائس "اندفعت الخيول يجلس فوق صهوتها الزبانية، معهم مقامع طويلة يضربون بها رؤوس الناس ويجلدون ظهورهم ..فإذا الفصل قد استحال خريفا مرعبا في دقائق، ثم شتاء عاصفا، يقصف من وسطه بالرعود يصيب بها كعشواء..لوهلة تهيأ له أن الملائكة تحلق قريبا فوق السماء باكية، على ما يحصل من سفك للدماء وهتك للأعراض"[12].

4- الشخصية القصصية ومأساة المصير المجهول البائس:

تشترك شخصيات المجموعة القصصية في تلك المعاناة المريرة، التي فرضتها عليها التحولات الطارئة في المجتمع وفي الحياة من حولها، لذلك تقدم الشخصيات في النص القصصي على هيئة شخصيات مأزومة، تعاني المأساة وتكتوي بنارها ويتجلى ذلك من خلال مفارقة تغير الأحوال والانتقال من حال السعادة والهناء إلى حال البؤس والشقاء، وقد تجلى ذلك في قصة (أم) أولا ثم بقية القصص الأخرى،"الشخصية في القصة القصيرة، هي ضمن العناصر الأساسية للقصة، بل هي الخالقة والفاعلة لأحداثها، في صراعها مع الآخرين، أو الطبيعة، والشخصية في القصة إما إنسان أو أشياء والشخصية الإنسانية هي بنت المجتمع الذي تنشأ وتكون فيه، إذا كان هذا المجتمع مأزومًا؛ فالشخصية تكون مأزومة بدرجة تأزم المجتمع، لأننا نرى أنَّ القصة القصيرة هي مرآه عاكسة للمجتمع، وهي تمثل طموح البرجوازي الصغير أو البطل المنتمي للطبقة الوسطى إذا اعتبرنا أنَّ الرواية ملحمة برجوازية كما ذهب فالقصة القصيرة تُعَبرُ عن البرجوازية الصغيرة"[13].

الشخصيات من هذا المنطلق تعبر عن أزمة مجتمع ينهار ويتآكل بفعل الأزمات والمحن التي تمربه، فالحرب السورية التي نشبت بين أبناء الوطن الواحد، هي التي صنعت مأساة "أم" وأحالت سعادتها إلى كابوس وإلى واقع مزري يثير الشفقة والعطف،" لقد احترقت الأرض التي درجت عليها..علمت من سيدة دمشق كل ذلك ..فالعجائب لا يمكن أن تنقضي بالمطلق،حتى تفنى الأرض ومن عليها..أليس قتل الأخ لأخيه أعجوبة من العجائب الشريرة"[14].

إن مأساة الشخصيات ناجمة عن مأساة عامة، تتناولها القصة تتمثل في مأساة مجتمع لم يستطع أبناءه العيش في إخاء ووئام فتحول أمنهم إلى خوف، وعزهم إلى ذل وفقر وتشرد، وهو الأمر الذي نراه يتكرر في قصة السيدة

زينب، التي تروي قصة الفتى الثائر المسالم الذي يطالب بحقه في الحياة الكريمة بكل سلمية وتحضر لكن تسلط الطواغيت وخبثهم يحول ثورته وثورة أمثاله إلى مأساة يفقد فيها كرامته وأمنه وسلامته بعد أن تعرض لطلق ناري في وقفته الاحتجاجية " فجأة أحس الشاب بحرق في خاصرته ..ركض في أثره الألم المبرح..غريب ما رآه بعد ذلك..كأنما تلك السحب قد تشكلت والتحمت فيما بينها تبدي وجه والدته، حزينا ينظر إليه"[15].

نقف في قصة (نافذة بقضبان) على معاناة شخصية سجين الرأي، الذي ينقل لنا من داخل السجن – بحماه– السورية تلك القسوة التي يعامل بها سجناء الرأي، فهم تحت رحمة الجلاد يعذبهم ويروعهم ويجوعهم ويقمعهم، بل ولا يسمح لهم حتى بميتة كريمة مثل باقي البشر، "أليست مأساة أن يبقى الأسير جثة هامدة دون دفن لمدة يومين بين زملائه في الحبس"[16]، يؤول مصير الشخصيات القصصية في (شتاء دمشق) عادة المجهول، لكن قبل ذلك تمر الشخصية بمحطات في حياتها، فتكون البداية بتصوير حياة الدعة والسعادة والهناء التي تنعم بها الشخصية في حالة استقرار الأوطان والمجتمعات، لكن الشخصية القصصية لا يستقر بها المقام في هذه المحطة إلا ريثما تتحول إلى محطة الاضطراب والفوضى، نتيجة اختلال ما في العلاقات الاجتماعية أو السياسية في الفضاء الذي تتحرك فيه، وهذه الفوضى تقود للمحطة الأخيرة وهي التيهان في المجهول، حيث لا معالم ولا أمل ولا مستقبل، ففي قصة: (الشجاع الأبتر) ينتهي الأمر بالمناضل" الفلسطيني إلى الحكم على القضايا المعيقة لمواصلة النضال بالتفاهة و أن المصير مجهول مالم يكن الإخلاص تاما"[17]، لكن مصيره في النهاية كان بيد المغتصب الذي أنهى حياته بأبشع الطرق لأنه لم يجد مؤازرا ومعينا في قضيته المصيرية " ألقوه هناك ريثما يبثون شيئا حياله، بعد ساعتين عادوا إليه مع آلة صغيرة، كانت حادة في بعض النواحي مدببة في أطرافها تلمع في يد أحدهم، أمسكه أربعة منهم ..ينما انبعث الأشقر الشقي"[18]، ليكون المواطن المغلوب على أمره ضحية هذه الحرب المجنونة، وعملت مجموعة (شتاء دمشق) للكاتب (نوار ياسين)، على تجسيد مأساوية المصير الذي يعانيه المواطن السوري في مواطن الشتات بعد أن كان عزيزا مصانا في بلده، وقد تجلى ذلك في أبعاد سردية مأساوية شديدة الحساسية في نقل الألم الذي يعتري البطل المأساوي الضائع، والمتحسر على ماضيه العتيد، والمتأمل في عودة قريبة إلى سالف العهد، ليتحول إحساس البطل إلى مشاعر مأساوية تؤثث الفضاء العام للمجموعة القصصية، وكأني بالكاتب يحاول تجسيد ذلك التآخي العربي زمن الشدائد ويريد أن يرد جميلا سبق لأهل سوريا أن قدموه للجزائريين حين "احتضنوا قائدهم الفذ الأمير عبد القادر الذي يعد المؤسس الفعلي للدولة الجزائرية الحديثة"[19].

5- الفضاء المأساوي في قصص شتاء دمشق:

رسمت الفضاءات السردية في مجموعة شتاء دمشق متناغمة مع الحدث السردي؛ من خلال إحالتها على حالة البؤس والتشرد والضياع التي تعانيها الشخصية السردية، وفي الغالب ما تتوزع بين فضاء المأساة الاجتماعية والسياسية، حيث معاناة الأفراد والجماعات من معضلات الفقر والحرمان والتضييق السياسي والفكري، وينعكس ذلك على حركة الحدث والشخصيات، فنحن دائما أمام فضاء بائس منتج للمأساة الاجتماعية والسياسية ، وأمام

فضاء آخر معمق للأزمة ومنتج كذلك للمصير المأساوي في النص،"لقد كان الفضاء على الدوام عالما تنتظم فيه الكائنات والأشياء والأفعال، ومعيارا لقياس الوعي والعلائق والتراتبيات الوجودية والاجتماعية والثقافية"[20].

أ- فضاء إنتاج المأساة:

تبدأ معاناة البطل المأساوي من وعيه الشخصي باختلال الوضع، سواء كان هذا الوضع في الجانب السياسي أو الجانب الاجتماعين هذا الاختلال الذي يدفع بالبطل لاتخاذ الموقف المناسب لتغييره، وهذا يصطدم بالضرورة بالعوائق المختلفة وأبرزها السلطة، والأفكار المعادية والمختلفة في الرؤية والأطروحة، لقد كانت بطلة القصة (أم) تعيش حياة هنيئة في دمشق إلا أن تحول هذا الفضاء إلى فضاء مأساوي فرض عليها الهجرة والتشرد بعد "احتراق أرجاءه"[21]، جراء العنف الممارس من أبناء هذا البلد بعضهم ضد بعض، لتنتقل البطلة إلى فشاء الهجرة والاغتراب للتعمق مأساتها حين تمارس "فعل التسول أمام أحد المساجد"[22].

والملاحظ هنا أن مأساة هذه الأم الشامية لم تكن هي طرفا فيها بقدر ما كان المؤسس لها هو ذلك الصراع الدائر بين أطراف متعددة من أجل السلطة، ومن أجل فرض إيديولوجيات بعينها على المجتمع، وقد أدى تصلب الآراء إلى إنتاج مأساة أفراده وبؤسهم، وهذا ينساق على أبطال قصص المجموعة كلهم، ففي قصة السيدة زينب يستيقظ البطل على مأساته الاجتماعية، فلا عمل ولا مستقبل ولا أمل"لقد تعفن الوضع في الآونة الأخيرة بحيث لم يعد أحد من الناس قادرا على احتمال المزيد"[23].

إنه فضاء الحارة المصرية قبيل أحداث الاحتجاجات العارمة التي شهدها ميدان التحرير وقد لخصها البطل في التعفن التام للوضع، وفي هذا السياق نجد بطل قصة نافذة بقضبان، الذي كان من بين من احتج على أوضاع بلده المزرية لكنه يجد نفسه في زنزانة تعمق مأساته وتزيد من بؤسه "يضم سجن حماه الكبير أكثر من ألفي سجين وسجينة،... لطالما سميناه صور الصين العظيم"[24].

لا يخفى على القارئ المتمرس أن مأساة أبطال قصص شتاء دمشق إنما يجمعون شتات المجتمعات العربية، التي صار العيش فيها يجسد المأساة بكل معانيها، بداية من تفشي الفقر بين شرائح كبيرة من أبناء هذه المجتمعات، ومرورا بالمشاكل السياسية والفكرية التي تهدد باستمرار استقرار هذه الدول، خاصة في ظل التنازع المحموم على السلطة، والذي ينتهي عادة بالتصادم، والتهجير أو الاعتقال والقتل في غياهب السجون، إن الأوطان العربية بهذا المعنى باتت فضاء لإنتاج المأساة، بسبب ضيق الأفق والتسلط المبالغ فيه وهضم حقوق الرعية وظلمها.

ب- جدلية الانفتاح والانغلاق في الفضاء الماساو:

الفضاءات المأساوية في مجموعة شتاء دمشق، فضاءات مخاتلة فهي مغلقة على انفتاحها، وبائسة رغم ظهورها المؤثث بالبهرجة والزينة الكاذبة وهي ميتة رغم تظاهرها بالحياة، ويمكن ملاحظة أن هذه الفضاءات عاشت فترتين وحالتين، مرحلة الاستقرار وتجلت فيها الحياة وتحركت فيها الشخصيات بكل حرية وطلاقة، ومرحلة الانغلاق وفيها استحالت إلى سجون مغلقة لا ترحب بأحد، فهي فضاءات طاردة وغير حميمية، مثل "دمشق" في قصة أم والسجن

في نافذة يقضيان، والميدان في قصة السيدة زينب،" إن الفضاء المتمثل بعيدا على أن يكون طبيعيا لا معنى له إلا في علاقته برغبة الذات بالغيرية والزمنية"[25].

فالشوارع والميادين والدور والمساجد وغيرها من الأفضية المذكورة في نصوص المجموعة، الأصل فيها الانفتاح، إلا أننا نجدها في المجموعة فضاءات مغلقة وبشدة، حتى أنها لم تعد تصلح للعيش" لم أكن أتوقع أبدا أن تحترق الغالية دمشق"([26]).

دمشق المضيافة ودمشق الحضارة؛لم يعد الإنسان يأمن فيها على نفسه من غدر الإخوة ورصاصهم المتناثر هنا وهناك، فغادرها أهلها تاركين إياها تعد قتلاها منغلقة على من بقي فيها، وعلى جراحها وصراعاتها ونزاعاتها ومقاتليها القادمين من كل جهة لتدمير وطن.

وميدان التحرير انغلق حين هاجت خيول المعتدين الشباب المحتج، وحين انفتحت فوهات البنادق تطارد الشباب الثائر، "هناك في ميدان التحرير يجتمع الكل الصغير والكبير من أجل التغيير..لم تدم فترة الصحو طويلا..فكأنما تلكم السحب قد تشكلت والتحمت فيما بينها .."[27].

ج– المشهد المأساوي وجدلية الأنا والآخر:

يشرح الفيلسوف الفرنسي (فرانسوا ليوتار) "الفرق بين السرديات الكبرى والسرديات الصغرى، (أن الأولى تقدم نفسها على أنها منظومة فكرية وقيمية عامة تفسر الطبيعة والمجتمع بصورة شمولية ونهائية وتنزع نحو الهيمنة والإقصاء، بينما توظف الثانية لإطلاق أحكام قيمة على أحداث منفصلة ومعينة ضمن إطار زماني ومكاني محدد، ولا تدعي لنفسها صفة الشمولية ولا النهائية المطلقة، فالسرديات الصغرى تسمح للباحث نقد وتقويض إدعاءات وتحيزات السرديات الكبرى، وتمنحه في الوقت نفسه، الأدوات المعرفية لتحليل الظواهر الاجتماعية والتاريخية من دون "إنشاء تأويل تفسيري جديد" قد يتحول مع الوقت والأحداث إلى سرديات كبرى بديلة"[28].

قد يدخل المشهد إذا دائرة السرديات الصغرى، التي تعمل على تحليل الظواهر الاجتماعية، بعرضها في إطار من تداخل الأحداث وتشعبها،وفي المجموعة القصصية شتاء دمشق تحضر الكثير من المشاهد المأساوية، التي تبين الخلل الذي يؤدي في العادة إلى تحقق المأساة العامة انطلاقا من مأساة الفرد داخل المجتمع،و ذلك بتأثير"الأحداث الكبيرة التي رافقت المسيرة الأدبية من انقلابات عسكرية وثورات وحروب وانتكاسات غيرت الوجه العام للمجتمعات العربية، وطرحت تحديات جديدة أمام الإنسان العربي المعاصر، وانعكست نتائجها سلبا أو إيجابا عليه بصورة مباشر"[29]، هذا يكون متزامنا ومواكبا ومحايثا مع" هيمنة للخطاب المسرود الذاتي باعتبار اشتغال الكاتب المكثّف على الذاكرة فضلا عن كون الذات تشكّل موضوع التبئير و السرد في آن"[30].

تشكل المشاهد المأساوية حضورا كثيف في مجموعة شتاء دمشق، وهي مشاهد تؤسس لأسباب المأساة ومظاهرها وتجلياتها، وهي تعكس اضطرابات الوطن العربي الذي شهد موجة الربيع العربي وأحداثه الدامية، "لم أكن طوال عمري هكذا يتيمة بائسة وحزينة ومتوسلة.. في حياتي كلها توقعت أشياء كثيرة، وتخيلت أمورا عديدة أنشأت بوادرها تظهر هنا وهناك على أرض الوطن الحبيب، ولكنني لم أتوقع لحظة أن تحترق الغالية دمشق"[31].

إن انهيار الوطن ودخوله في حرب دامية هو السبب الرئيس في مأساة أبنائه التائهين في كل بقاع العالم،باحثين عن أماكن آمنة لا يكتوون بنار الحرب فيها، إن عجز الأنا عن تقبل الآخر، وتجبر الأنا اتجاه الآخر واتخاذه عبدا مهانا أو اتخاذه عدوا يحارب ويقمع، دون أن نسمع رأيه ولا أن نهيئ الظروف له ليعيش بكرامة، كل هذه الأمور لا شك هي التي هيأت الأجواء، لظهور مأساة الإنسان العربي وخير مثال لهذه المأساة الأم الشامية المتسولة في بلاد الغربة بعد عز ورفعة، وإلى القريب من هذا تشير قصة كم كنت شجاعا هابيل، لكنه طرحت قضية الحرمان ودوره في إثارة حفيظة العامة ودفعهم دفعا للاحتجاج والاستنكار، لكن احتجاجهم ينتهي بمشهد مروع "اشتعلت الحارة بما فيها ومن فها، رأيت جيراننا الذين كنا نداوم على تحيتهم .. يصطرخون ويستغيثون في خوف من النيران رأيت الفتيات والنسوة اللواتي كان العز والحياء يتقاطر منهن، يندبن إخوانا وأزواجا وأولادا نصف عاريات على قارعة الطريق..كان بالنسبة إلي مشهدا مستنسخا من الجحيم"[32].

تتحول الذات الإنسانية في أحيان كثيرة إلى حيوان شرس خاصة في مواجهة الآخر المعارض، فتبطش به أيما بطش فلا تبقي له ولا تدر، حتى وإن اقتضى الأمر حرق البلاد والعباد وكأننا أمام نيرون الروماني الجديد الذي أحرق روما، وظل يضحك انتقاما من خصومه، إن المشهد المأساوي في مجموعة (شتاء دمشق) ليمارس الكشف والفضح للكثير من الممارسات غير الإنسانية في المجتمعات العربية، التي لم تعد تعير الإنسان قيمة إلا بقدر ولائه واستسلامه، فإن هو ثار واحتج فالموت له، ومن هنا باتت المأساة قدر الإنسان العربي في أرضه ووطنه" الحقيقة لقد ضاقت نفسي، وانقبض صدري وجف حبري فأنا غير قادر على أن أضيف المزيد..إن أسباب الحضارة أصبحت تزول من بلادي كل يوم سببا فسببا فلا أحد عاد يهتم"[33]، إن مجموعة (شتاء دمشق)مثلها مثل الرواية تبحث " عن قيم أصيلة في عالم منحط..وإنما جاءت..لدواع تتصل بانهيار سلم القيم الذي كان سائدا في المجتمعات المتحضرة"[34].

6- الزمن المأساوي في مجموعة شتاء دمشق:

ينقسم الزمن في مجموعة (شتاء دمشق)، إلى زمنين زمن الماقبل وزمن المابعد، والمقصود بذلك زمن ما قبل المأساة وزمن ما بعد المأساة، ولكل زمن منهما خصائص تميزه، وتجليات تبينه، حيث يسير الزمن الأول سيرا عاديا كرونولوجيا، في حين يتسم الزمن الثاني بالانكسار والتداخل، وكثرة الاستذكار والعودة إلى الزمن الماضي، وكأني بأبطال قصص المجموعة لا يجدون في الحاضر، ولا في المستقبل ما يرضيهم، فيشدهم الحنين إلى الزمن الماضي لما فيه من ذكريات جميلة تمثل لهم فترات الهناء والسعادة والعزة والكرامة وتلك هي ظاهرة "الاغتراب في الزمن إذ تعيش الشخصيات الرئيسة اغترابها عن واقعها الصحيح"[35].

يفتتح الراوي السرد منطلقا من اللحظة الحاضرة، راسما معالم الشخصية في حالة من الاغتراب الشديد، عن الواقع الذي تعيش فيه، منفصلة عن المكان والشخصيات مندمجة في عالمها الخاص الذي تسكنه المأساة، ليشكل هذا التقديم الزمن الأول،"رأيتها واقفة في ساحة الجامع العتيق أن يرفع المؤذن صوته بصلاة الغروب بشيء قليل،..إننا في زمن يدع الحليم حيرانا أسيفا على ما فعل.. لم تكن الغريبة تتكلم..تكتفي بالمشاهدة..تمسك بوليدها في حضنها.."[36]، في هذا التقديم من قصة (أم) يضعنا الراوي أمام البطلة في حاضرها البائس، الذي جرته عليها

حرب الإخوة الأعداء في بلاد سوريا، لتكون أنموذجا لمعاناة فئة واسعة من أبناء الشعب السوري الذين اكتووا بنار الحرب، فهاجروا وذاقوا ويلات الاغتراب والفاقة الذل وهنا ينفتح النص على الزمن الآخر لكن بلسان الشخصية لتتذكر الزمن الماضي زمن العز و الأمن وزمن الحب والهناء والسعادة، "أين عي تلك الأيام السعيدة التي كان يتجول ماسكا راحتها في دمشق وشوارع دمشق، بل أين هي تلك اللحظات الحلوة، التي قضاها مستغرقا في الحب متمتعا بالحنان أيام الرخاء والسلم حالما بالأولاد والأحفاد والمستقبل الواعد المشرق، كم هي بعيدة أيام أسبوع العسل في مدينة تدمر الأثرية، إذ النسائم تهب والمشاعر والذكريات"[37]، لم يعد من سبيل للعيش في الزمن الحاضر ذلك أنه زمن تؤثثه الحرب والكراهية والعدوان والخراب، لذلك يعد الزمن الماضي هو الزمن الأثير عند شخصيات قصص شتاء دمشق، التي حلمت بربيع الحرية والديمقراطية لكنها صدمت بشتاء مخيف صواعقه القنابل والرصاص والدمار.

7- الخاتمة:

مجموعة (شتاء دمشق) من المجموعات القصصية القليلة التي تناولت قضية الربيع العربي ومآلاته،وقد اتخذت المجموعة من دمشق عاصمة الدولة السورية أنموذجا لبقية الدول العربية التي عرفت أحداثا مشابهة لأحداث دمشق، وقد غلب على المجموعة الحس المأساوي، نتيجة خيبة الأمل التي جرتها هذه الأحداث، خاصة في ظل المفارقة الكبرى التي جسدتها أحداث قصص المجموعة، والتي مفادها حين يحول الحلم إلى كابوس أوحين ينقلب الربيع شتاء دامسا.

- تجلت المأساوية في المجموعة القصصية بدية من العنوان ثم عتبات النص من ألوان وصور، وهي التي هيئت القارئ لتلقي الخطاب القصصي ضمن عوالم مأساوية.
- تجلت السردية المأساوية في كل العناصر السردية بما في ذلك الشخصيات التي شكلت صورة مصغرة لمعاناة الشعوب العربية التي اكتوت بنار ما سمي بأحداث الربيع العربي، كما تجلت في الفضاءات التي صارت فضاءات طاردة مهجرة لقاطنيها، بسبب الأحداث الدامية التي تعرفها، دون أن ننسى الزمن المأساوي الذي يعبر بصورة واضحة عن حالة البؤس الذي حل بالأمة العربية، نتيجة الكثير من الزلات السياسية والاجتماعية والفكرية، التي تراكمت لتلد ربيعا مشوها هو أسوء من الشتاء.
- تعد مجموعة شتاء دمشق دعوة لإعادة النظر في الكثير من العلاقات السياسية والاجتماعية والثقافية، والمفاهيم المتعلقة بالحرية والثورة، وتنبه إلى أن الحرية التي تهدم أمة، وتكسر وطنا وتشرد شعبا، استعباد جديد في ثوب ثورة.

قائمة المصادر والمراجع:

المصدر:

- ياسين نوار، شتاء دمشق مجموعة قصصية، دار الألمعية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط1، سنة 2016.

المؤلفات:

-حسن نجم ، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية،الثقافي العربي ، المغرب، ط1، سنة 2000

- محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان الطبوعات الجامعية ، الجزائر، د/ط ، سنة 2006،

– عبد الله إبراهيم ، السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي،المغرب، ط1، سنة 2003

المجلات:

–بحري محمد الأمين، المأساوي في الأدب العالمي (المصطلح – الحامل– الأشكال)، مجلة الأداب واللغات، الجزائر، العدد4، سنة ،2010.

– رواق عثمان، البعد الملحمي في رواية صحاري السراب لنوار ياسين،مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية، المركز الديمقراطي العربي، برلين ألمانيا، العدد 16 المجلد 4، كانون الأول سنة 2020

– عثمان رواق، شعرية العتبات في ديوان مملكة بلقيس لزهرة خفبف، مجلة المقال، جامعة20 أوت 1955 سكيكدة، العدد 02، ديسمبر2015

– Gérard genette ;palmmpssestes.ed du seul.paris.1982.

4– المواقع:

–أحمد عواد الخزاعي، السرديات الكبرى وسرديات الضد، موقع:

https://www.almothaqaf.com. .2021 – 05 - 31 الاثنين

–د. شفيق المهدي، مفهوم الزمن في المسرح الفرنسي الحديث، موقع:

http://www.alnoor.se/article.asp: 2014/01/26– صبحي قمحاوي، المفارقة في الأقصوصة،: thakafamag.com تاريخ الدخول: 2021/05/19– مجد فرارجة، دلالة اللون الرمادي، موقع: mawdoo3.com.18/01/2021 الدخول يوم : 2021/05/22.

– ممدوح مكرم. أزمة شخصيات. 2017/12/8 تاريخ الدخول:

– https://www.ahewar.org :2021/05/26

– مفهوم التراجيديا عند أرسطو، موقع:mfacebook.com-20/04/2014 ،

تاريخ الدخول: 2021/05/15

الهوامش والإحالات:

[1]– رواق عثمان، البعد الملحمي في رواية صحاري السراب لنوار ياسين،مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية، المركز الديمقراطي العربي، برلين ألمانيا، العدد 16 المجلد 4، كانون الأول سنة 2020، ص15/14

[2]– مفهوم التراجيديا عند أرسطو، موقع:mfacebook.com-20/04/2014 ، تاريخ الدخول : 2021/05/15.

3– بحري محمد الأمين، المأساوي في الأدب العالمي (المصطلح – الحامل– الأشكال)، مجلة الأداب واللغات ، الجزائر، العدد4، سنة ،2010، ص 13/12/11[3]

[4]– م.ن.ص. 17/16

[5]– litrary terms. net .le 19/05/2021. tragedy– موقع:

[6]– صبحي قمحاوي، المفارقة في الأقصوصة، موقع: thakafamag.com، تاريخ الدحول: 2021/05/19.

[7] –Gérard genette ;palmmpssestes.ed du seul.paris.1982.p.7

– عثمان رواق، شعرية العتبات في ديوان مملكة بلقيس لزهرة خفبف، مجلة المقال، جامعة20 أوت 1955 سكيكدة، العدد 02،ديسمبر2015،ص 07/06[8]

[9]– مجد فرارجة، دلالة اللون الرمادي، موقع : mawdoo3.com.18/01/2021 ، الدخول يوم : 2021/05/22.

[10]– نوار ياسين، شتاء دمشق، مجموعة قصصية، الألمعية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، سنة 2016، ص 22/21

[11]– نوار ياسين ، شتاء دمشق، ص 19/18

[12]– م.ن.ص.36

[13]– ممدوح مكرم. أزمة شخصيات وشخصيات مأزومة موقع: https://www.ahewar.org/. 2017/12/8 تاريخ الدخول :2021/05/26

[14] – نوار ياسين ، شتاء دمشق ، ص 22/21

[15]– م.ن.ص، 37

[16]– م.ن.ص69/68

[17]– م.ن. ص.202

[18]– م.ن.ص.206

[19]– محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان الطبوعات الجامعية ، الجزائر، د/ط ، سنة 2006، ص 372 ومابعدها

20– حسن نجم ، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية،الثقافي العربي ، المغرب، ط1، سنة 2000، ص32

[21]– نوار ياسين ، شتاء دمشق، ص 21

[22]– م.ن.ص 7

[23]– م.ن.ص 27

[24]– م.ن ص. 61

[25]– حسن نجم ، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية،الثقافي، ص39

[26]– نوار ياسين ، شتاء دمشق ، ص 21

[27]– م.ن.ص.31/إلى 37

[28]– أحمد عواد الخزاعي، السرديات الكبرى وسرديات الضد ، موقع:https://www.almothaqaf.com . الاثنين 31 – 05 – 2021.

[29]– م.ن. الإثنين 2021/05/31، تاريخ الزيارة : 2021/05/31

[30]– م.ن. . الإثنين 2021/05/31، تاريخ الزيارة : 2021/05/31

[31] – نوار ياسين ، شتاء دمشق ، ص32/30

[32]– م.ن.ص.43

[33]– م.ن.ص. 44

[34] – عبد الله إبراهيم ، السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي،المغرب، ط1، سنة 2003، ص63

[35]– د. شفيق المهدي ' مفهوم الزمن في المسرح الفرنسي الحديث، موقع: http://www.alnoor.se/article.asp ، يوم :2014/01/26، يوم الدخول: 2021/06/02

[36] – – م.ن.ص،10/9/8/7

[37]– م.ن.ص. 18/17